النفس والأجل

٣٤ قال الله تبارك وتعالى فى الحديث القدسى للنفس:

«اخْرُجِى. قالتْ : لا أَخْرجُ إلاَّ كَارِهةً. قالَ: اخْرُجِى وَإِنْ كَرِهْتِ» (١)

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلاً .. (١٤٥) ﴾ (آل عمران)

فالله سبحانه هو الذى يُطلق الإذن ، والإذن يكون للملائكة ليقوموا بهذه المسألة ، ولذلك نجد القرآن الكريم حين يتعرض لهذه المسألة يسند مَرَّةً هذه العملية للحق سبحانه ، فيقولُ سبحانه :

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٤٢) ﴾ (الزمر)

---

(١) أخرجه البزار (١/ ٣٧١ - كشف الأستار) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه . قال الهيثمى في مجمع الزوائد (٢/ ٣٢٥) : «رجال ثقات».

ومرَّة أخرى يسند القرآن هذه العملية لملَك واحد هو مَلَكُ الموت ، فيقول :

﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ ﴾ (السجدة)

ومرَّة يسندها الحق سبحانه إلى رُسُل من المعاونين لملَك الموت:

﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً[1] حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ (الأنعام)

فقبضُ الروح والإماتة له آمرٌ أعلى ، وهو الحق سبحانه ، ومن بعد ذلك هناك مُوكَّلٌ عامٌّ هو « عزرائيل » مَلَك الموت ، وهناك معاونون لعزرائيل وهم الملائكة .

وهذه ثلاثة أساليب يَصِفُ بها الحق سبحانه عملية الوفاة وقَبْض روح العبد ، وليس فى هذا تناقضٌ أو تضاربٌ أو اختلاف ، بل هو إيضاح لمراحل الولاية التى صنعها الله ، فهو سبحانه الآمر الأعلى ، يصدر الأمر إلى عزرائيل ، وعزْرائيل يُطلِق الأمر لجنوده .

فهذه الأساليب الثلاثة كلها صحيحة ، لأنها تتعلَّق بمدارج الأمر .

فالحق سبحانه وتعالى صادق فى كُلِّ بلاغ عنه ، لأن كُلَّ أمر يُحَدِّد الأجل ليس بمراد الموكّل بإنهاء الأجَل ، إنما هو بإذن من الله تعالى الذى

(١) الحفظة : جمع حافظ . أى : ملائكة رقباء . (القاموس القويم ١/ ١٦٣) والحفظة : الذين يحصون الأعمال ويكتبونها على بنى آدم من الملائكة ، وهم الحافظون . (لسان العرب ـ مادة : حفظ).

يُحدّد ذلك ، وما دام كُلُّ أمرٍ قَدْ صدرَ منه فهو سبحانه الذى يتوفَّى الأنفس، وبعد ذلك فالمَلَكُ الذى يتوفَّى الأنْفسَ - عزرائيل- له أعوان.

فملَكُ الموت عندما يتلقَّى الأمر من الله فهو ينقل الأوامر إلى أعوانه ليباشرَ كُلُّ واحد مُهِمته(١).

إذن : فصَيْرورة الأمر بالموت نهائياً إلى الله ، وصيرورة الأمر بالموت إلى الملائكة ببلاغ من الله ، هذا هو الإذْن ، والإذْنُ يقتضى مأذوناً ، والمأذون هم ملائكةُ الموت الذين أَذن لهم مَلَكُ الموت بذلك ، ومَلَكُ الموت تلقَّى الإذن من الله سبحانه وتعالى(٢).

إذن : فأمْرُ الموت مرهونٌ بمشيئة الله وطلاقة قُدرته وتحديده لكل أَجَلٍ بوقت معلوم لا يتقدَّم ولا يتأخّر.

---

(١) قال البراء بن عازب : خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر، ولما يلحد ، فجلس رسول الله وجلسنا حوله ، فجعل يرفع بصره وينظر إلى السماء ويخفض بصره وينظر إلى الأرض ثم قال : « إن العبد المؤمن إذا كان في إقبال من الآخرة وانقطاع من الدنيا ، جاءه ملك فجلس عند رأسه فيقول : اخرجي أيتها النفس الطيبة إلى مغفرة من الله ورضوانه فتخرج نفسه فتسيل كما يسيل قطر السقا ، وإن كنتم ترون غير ذلك ، وتنزل ملائكة من الجنة بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس ، معهم أكفان من أكفان الجنة ، وحنوط من حنوطها ، فيجلسون منه مد البصر فإذا قبضها الملك لم يدعوها في يده طرفة عين » أورده القرطبي في التذكرة (ص١٢٩) وعزاه لأبي داود الطيالسى وأحمد بن حنبل.

(٢) نظر رسول الله ﷺ إلى ملك الموت عند رأس رجل من الأنصار فقال له النبي ﷺ : « ارفق بصاحبي فإنه مؤمن ، فقال ملك الموت عليه السلام : يا محمد ، طب نفساً وقر عيناً فإني بكل مؤمن رفيق ، واعلم أن ما من أهل بيت مدر ولا شعر في بر ولا بحر ، إلا وأنا أتصفحهم في كل يوم خمس مرات حتى لأنا أعرف بصغيرهم وكبيرهم منهم لأنفسهم ، والله يا محمد لو أني أردت أن أقبض روح بعوضة ما قدرت على ذلك حتى يكون الله هو الآمر بقبضها ». أورده القرطبي في التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة (ص ٧٦) ط. دار التراث القاهرة.

لقد أبهمَ الله زمانه ، وأبهمَ مكانه ، وأبهمَ سببه ، وأبهمَ قَدْره. وهذا الإبهام هو أشدُّ أنواع البيان ؛ لأنه ما دام قد أبهمه فى كُلِّ هذه الأمور يجب أنْ نستعدّ للقائه فى كُلِّ زمانٍ ، وفى كُلِّ مكانٍ ، وبأىِّ سبب.

وإياك أن تتعجَّب لأنه يحدث فى أىِّ سِنٍّ ، فإبهام الحق له هو أكبر بيان ؛ لأنه سبحانه لو حَدَّده زماناً أو مكاناً أو سِنّاً أو سبباً ، لكَانَ على الإنسان أنْ ينتظرَ الموت.

لكن الحق سبحانه شاء هذا الإبهامَ ، وهو أَقْوى أنواع البيان ، لِيلْفِتك ويحثَّك على أن تنتظره فى أىِّ زمان ، وفى أىِّ مكان ، وبأىّ سبب ، وفى أىِّ سِنٍّ.

وبهذا يكون الموتُ واضحاً أمامنا جميعاً ، ولذلك تخشى ارتكاب أىّ ذنب حتى لا تُقبض رُوحك وأنت على الذنب ، لأنك لا تحب أنْ تلقى الله وأنت عَاصٍ.

إنك لا تضمن من عُمرك أنْ تعيشَ إلى آخر الوقت ، ولذلك عندما نقول : إن الإبهامات من أقوى أنواع البيان فيجب أنْ نُصدِّق ذلك ، لأن البعض يقول : ولماذا لم يُبيِّن الله لنا ذلك ؟

ودائماً أقول : لقد أوضح الله ما أبهم ، فإن الإبهامَ هو أَقْوى بيان ، أَلَمْ نَرَ إنساناً ذهب لطبيب ليعالجه فى مسألة ، فكان الطبيب سببَ موته ؟ لقد رأينا ذلك ، لقد أخذ هذا الإنسانُ بالأسباب ، ولم يمنع ذلك أن قَدرَ الله قد نفذَ فيه ، فقد يُخطىء الطبيبُ مثلاً فى إعطاءِ حُقنةٍ فتنتهى الحياة.

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول :

﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ.. ﴿٣٤﴾ ﴾ (الأعراف)

ولنعرفْ جميعاً أن كُلَّ أجلٍ - وإنْ طالَ - فهو معدود ، وكُلّ معدود قليلٌ مهما بَدا كثيراً.

ويقول تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلاً.. ﴿١٤٥﴾ ﴾ (آل عمران)

هذا القَوْل قد يدفع إلى التساؤل : وهل الموتِ أَمْرَ اختياريّ ؟

لا ، ولكن قَوْل الحق سبحانه هنا له إيحاءٌ ، لأنك عندما تقول : ما كان لفلان أنْ يفعلَ كذا ، فهذا معناه أن لفلان أنْ يختارَ أن يفعل ذلك أو لا يفعله ، وفى قدرة فلان أنْ يفعلَ أو لا يفعل ، أما عن قدرة الله فلا يمكن أنْ يقولَ أحدٌ ذلك.

إننا نفهمه على فَرْض أن النفس تدفع نفسها إلى موارد التهلكة ، فما لها أن تموتَ إلا أنْ يأذنَ الله ، فإذا كانت النفس هى التى تدفع نفسها إلى موارد التهلُكة ، مع ذلك لا تملك أنْ تموتَ ، فكيف إذا لم تدفع نفسها إلى موارد التهلُكة ؟

إذن : فالموت إنْ أرادتْهُ النفس فلن يأتىَ إلا أنْ يكونَ الله قد أَذِن بذلك ، وإننا نجد فى واقع الحياة صَوراً شتّى من هذه الصُّور.

نجد مَنْ يضيق ذرعاً بهذه الحياة ؛ لأن طاقته الإيمانية لا تتسعُ للبلاء

والكَدِّ فى الدنيا فينتحر . إنه يريد أنْ يفرَّ مِمَّا لا يقدر على دفع أسبابه.

أما الذى يملك الطاقة الإيمانية الرَّحْبة ، فأىُّ شقاء أو بلاء يُقابله يقول : إن لى ربّاً ، ومَا أجراه عىّ ربِّى فهو المربِّى الحكيم الذى يعرف مصلحتى أكثر مما أعلم ، ولعلَّ هذا البلاء كفَّارة لى عن ذنب.

وهذا عكس مَنْ يفرُّ مِمّا لا يقدر على دفع أسبابه ، فيحاول أن يقتلَ نفسه[1] ، وكُلٌّ مِنّا قد رأى أو سمع عن بعض الذين يريدون ذلك ، لكن يتم إنقاذهم ويُدركهم مَنْ ينفذ مشيئةَ الله فى إنقاذهم ، كغسيل المعدة لمن ابتلع أقراصاً سامة ، أو إطفاء حريق مَنْ أشعل فى نفسه النار.

فالمنتحر يريد لنفسه الموت ، ولكن الله إذا لم يأذن فلا يُبلغه الله هذا ، فقد تجد مُنْتحراً يريد أنْ يُطلِق على نفسه رصاصة من مسدس فلا تنطلق الرصاصة ، أو تجد مُنْتحراً آخر يريد أنْ يشنقَ نفسه بحبل مُعلّق فى السقف فينقطع الحبل ، لماذا ؟

لأنه لا يقبض الحياةَ إلا مَنْ وهبَ الحياة .

قد يقول قائل : ولكن هناك المقتول الذى يقتله إنسانٌ آخر . وهنا يَرِدُ المَثَلُ الشعبىّ : لو صبر القاتل على المقتول لماتَ بمفرده .

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (١٣٦٤ ، ٣٤٦٣) من حديث جندب بن عبد الله البجلى أن رسول الله ﷺ قال : كان فيمن كان قبلكم رجل به جرح فجزع فأخذ سكيناً فحزَّ بها يده ، فما رقأ الدم حتى مات . قال الله تعالى في حديثه القدسي : « بادرنى عبدى بنفسه ، حرمت عليه الجنة » انظر شرح هذا الحديث (١ ١٢٣ - ١٣٤) (الحديث التاسع).

إن اللحظة التى تُفارق الروحُ مـادة الجسد مـوقوتةٌ بأجل محدود ، فـمرّة تأتى اللحظةُ بدون سبب ، فيموت الإنسانُ حَتْف أنفه ، ويقول أصدقاؤه : لقد كان معنا منذ قليل ، إنهم ينسوْنَ أنه مات لأنه يموت بكتاب مُؤجّل .

ولذلك نجد إنساناً يسعى إلى عافية الحـياة ، فيذهب لإجراء جراحة ما ، وأثناء إجراء الجراحة يموت.

إن الكتابَ إذا انطوى فقد انتهى الأمر ، حتى عندما يلتقى الإنسانُ بأسد ، فيسـتوى الموت بالنَّاب ، كالمـوتُ بظُفْر الأسد ، فإنْ نام المـوت عن الإنسان فقد يشفيه من أمراضه قُرْص دواء أو جَرْعة ماء.

والحق سبحانه يقول :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ .. ﴿٣٥﴾ ﴾ (الأنبياء)

وما دامتْ كُلُّ نفس ذائـقةَ الموت ، فـهذه قضـية كونيـة عامة ، فـإنْ كان المـوتى من الأخيـار ، فالمـوت تعـجيلٌ بهم إلى لقـاء الله ، وإن كانوا أشـراراً فالموت يُريح الدنيا منهم ، فالموْت خَيْرٌ فى كِلاَ الحالَيْن(١).

ولكن كيف يُذاق الموت ؟

وإذا كان الذَّوق هو إحساسُ الإنسان بألم الموت ، فكيف يذوق الإنسان ألمَ الموت بعد أنْ يموتَ ويفقد الإحساس ؟

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٦٥١٢) عن أبى قتادة بن ربعى الأنصارى أنه كان يُحدِّث أن رسول الله ﷺ مُرَّ عليه بجنازة فـقال : مستريحٌ ومستـراحٌ منه. قالوا : يا رسول الله ، ما المستـريح والمستراح منه. قال : « العبـد المؤمن يستريح من نصب الدنيـا وأذاها إلى رحمة الله عز وجل ، والعبـد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب ».

قالوا : إن المقصودَ كلُّ نفسٍ ستذوق مُقدِّمات الموت ، فيأتى على الإنسان وَقْتٌ - مهما كان صحيحاً - يدرك أنه لاَ محالةَ ميِّت ، فيذوق مُقدّمات الموت التى يعرف بها أنه سيموت.

وإذا استعرضنا كُلَّ ما فى الدنيا فلا نجد شيئاً نتفق فيه إلاَّ الموت ، وفيما عدا ذلك فنحن نختلف ، إذن : فلا بُدَّ أنْ نلتفتَ فى حياتنا الدنيا من أول يوم إلى أننا سوف نموت ونلقى الله ، وعلينا أنْ نعُدّ العُدَّة لذلك ، وكلُّنا سائرون إلى هذه النهاية.

ولكن استقبالَ الموت فى لحظات السَّكَرات[1] يختلف بين المؤمن والكافر.

فعابد الدنيا عمل من أجلها فقط ، ولم يعمل شيئاً من أجل الآخرة ، فعندما يأتى له الموت يجد أنه لم يُقدِّم شيئاً لآخرته ، وأن ما ينتظره هو العذاب ، ولذلك يكره أنْ يتركَ نعيم الدنيا لِيُلاقى عذابَ الآخرة.

أما صاحب الأعمال الطيبة عندما يأتى له الموت فهو يستبشر ، لأن الذى ينتظره خيرٍ يفوق كُلَّ الذى سيتركه ، كمثَلِ إنسان يعيش فى كوخ صغير ، ثم ينتقل إلى قصر فاخر ، ألاَ يكون سعيداً ؟

وكذلك المؤمنُ عندما يأتيه الموت يصبح كالذى ينتقل من كوخ صغير إلى قصر فاخر ، أما صاحب الدنيا فمثَل الذى يُؤخذ من قصر إلى نار مُحرِقة ،

(١) السكرات : جمع سكرة وهو شدته وغَشْيته التى تدل الإنسان على أنه ميت . (لسان العرب - مادة : سكر).

ولذلك فهو يكره ساعة الموت [١].

والمؤمن يفرح حين ينتقل من الدنيا الفانية إلى الحياة الخالدة الباقية ، ومن النعمة إلى المنعِم ، ومن الحياة بالأسباب إلى الحياة مع المسبِّب ، فنحن فى الدنيا لا بُدَّ أنْ نأخذَ بالأسباب لنصنع ما نريد.

والمثال : أنك إنْ أردتَ أنْ تأكلَ فلا بُدَّ من أنْ تطهوَ الطعام أو أنْ يُعده لك غيرك ، وإنْ أردت أنْ تلبس فلا بُدَّ لك ممنْ يصنع لك القماش ويَحيك الثوب.

ووراء كل نتيجة تُوجد سلسلة طويلة من الأسباب ، فهناك الذى يزرع ، والذى يحصد ، والذى ينقل إلى المطحن أو إلى المصنع ، والذى يطحن الدقيق أو ينسج القماش.

أما فى الآخرة فلا تُوجَد أسباب ، بل بمجرد أنْ يخطر الشىء على بالك تجدْه أمامك ، أليستْ هذه حياة نعيم ؟

إذنْ : فالذى تنفرج أساريره ساعة الموت هو المؤمن[٢] ، والذى ينقبض وجهه ويتشنَّج عندما يأتيه ملَكُ الموت هو الكافر والعاصى ، لأنه سينتقل من

(١) عن عائشة ﵂ قالت قال رسول الله ﷺ : «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه. فقلت : يا نبي الله أكراهية الموت فكلنا نكره الموت. فقال : ليس كذلك ولكن المؤمن إذا بشر برحمة الله ورضوانه وجنته أحب لقاء الله فأحب الله لقاءه ، وإن الكافر إذا بُشّر بعذاب الله وسخطه كره لقاء الله ، وكره الله لقاءه» أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٨٤) والترمذي في سننه (١٠٦٧). وقال : حسن صحيح.

(٢) قال الحسن البصري : لا راحة للمؤمن إلا في لقاء الله ، ومن كانت راحته في لقاء الله تعالى فيوم الموت يوم سروره وفرحه وأمنه وعزه وشرفه (انظر : إحياء علوم الدين ٤/ ٤٦٥).

نعيم حتى ولو كان نسياً إلى عذاب رهيب.

ويُقال : إن فلاناً أحسنَ الله خاتمته لأنهم دخلوا عليه لحظةَ الموت فوجدوا وجهه أبيض وملامحه سَمْحة مُسْتريحة.

نقول : إن هذا صحيح ، فهذه لحظة لا يكذبُ الإنسان فيها على نفسه ، ونحن نعلم أن الإنسانَ حين يشتدُّ عليه المرض فهو يتشبَّث بالأمل فى أنْ ينالَ الشفاء على يَدِ طبيب بارع ، لكن الأمر يختلف ساعة الاحتضار حين يعلم الإنسان أن الموتَ يتخلَّله ، وأنه ميِّت لا محالة ، مِصْداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣) وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ (٨٥) ﴾ (الواقعة)

حينئذ يستعرض أعماله ، فإنْ رأى شريط الحياة حُلْواً منيراً ، ابتسم وانفرجتْ أساريره ، فيُبض على هذا الوضع.

أما مَنِ امتلأت حياته بالسوء والمعاصى فوجهه يسودّ وتنقبض أساريره فيُقْبض على هذا الوضع.

وهذا مَا نُسمّيه لخاتمة ، فلحظةُ الاحتضارِ فيها يقينٌ بالموت ، ففى ساعة الاحتضار يخلو الذِّهْن من أىِّ شىء إلا صحيفة عمله ، فهى التى تبقى فى بُؤْرة شعوره.

وقد أبهم الحق سبحانه مكان موت أحدنا ، فقال تعالى :

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ[1] مُّشَيَّدَةٍ ﴿٧٨﴾ ﴾ (النساء)

فالحق سبحانه هنا يتعرض لقضية الموت مع المكان ، فالعقل البشرى الذى يتوهم أن بإمكانه الاحتياط من الموت - مكاناً - عليه أن يعى جيداً أنه لا يستطيع ذلك.

فلطافة تغلغل الموت تخترق أىَّ مكان[2] وزمان ، ما دام الحق سبحانه قد قضى به ، فلا أحدَ يستطيع أنْ يحتاطَ منه أبداً ، فإذا كان الله قد جعل للإنسان رُوحاً يهبه بها الحياة ، فلماذا لا نتصوَّر أن للموت حقيقة.

فإذا مَا تسلَّل الموتُ للإنسان فإنه يسلُب الروح منه ، وبذلك نستطيع أن نفهم قَوْل الحق سبحانه وتعالى فى سورة الملْك :

﴿ تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾ (الملك)

إذن : فالموتُ ليس عمليةً سلبيةً كما يتوهّم بعضُ الناس ، بل عملية إيجابية وهو مخلوق بسِرٍّ دقيق للغاية يناسب دِقّة الصانع ، ووصف الحق سبحانه أمرَ الموتِ والحياة فى سورة الملْك ، وقدَّم لنا الموتَ على الحياة ، مع أننا فى ظاهر الأمر نرى أن الحياة تأتى أولاً ، ثم يأتى الموت.

---

(١) البروج : جمع برج ، وهو الركن المرتفع أو الحصن العالى . والبيت يُبْنى فوق السور أو في أعلى الحصن . والبناء المشيد : الذي أحكم بناؤه وطلى ورفع عالياً. (القاموس القويم ١/ ٦١، ٢/ ٣٦٣).

(٢) أورد القرطبي فى التذكرة (ص ٧٥) من قول ابن عباس : « كان إبراهيم عليه السلام رجلاً غيوراً ، وكان له بيت يتعبد فيه فإذا خرج أغلقه فرجع ذات يوم ، فإذا هو برجل في جوف البيت فقال : من أدخلك دارى؟ فقال : أدخلنيها ربها. قال إبراهيم : أنا ربها ، قال : أدخلنيها من هو أملك بها منك ، قال : فمن أنت من الملائكة ؟ قال : أنا ملك الموت ».

لا ، إن الموتَ يكون أولاً ، ومِنْ بعده تكون الحياة ، فالحياة تعطى للإنسان ذاتية ليستقبل بها الأسبابَ المخلوقة ، فيحرثُ الأرض أو يتاجر فى الأشياء أو يصنع ما يلائم حياته ، ويُمتِّع به السمع والبصر ، فيظنُّ أن الحياة هى المخلوقة أولاً.

وسبحانه وتعالى يقول :

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ .. ﴿٧٨﴾ ﴾ (النساء)

أى : أَيْنما تُوجدون يُدرككم الموت ، وهذا دليل على أن الإنسان عندما تدبُّ فيه الروح ينطلق الموت مع الروح ، إلى أنْ يُدركها فى الزمن الذى قدَّره الله.

وكلمة « يدرك » تُوضِّح لنا أن الموتَ يلاحق الروح حتى إذا أدركها سلبها ، وكما قال الأثر الصالح عن ملاحقة الموت للحياة : « حتى إذا أدركها جَرَتْ ، فلا أحدَ منكم إلا هو مُدْرَك ».

ولذلك يقول أهل لمعرفة والإشراق :

« الموت سهم أُرسِل إليك ، وإنما عمرك هو بقدْر سفره إليك ».

وهكذا نعرف أن قوله الحق : (يدرككم) يدل على أن الموت يلاحق حياة الإنسان ، ويجرى وراء روحه حتى يُدركها.

والحق سبحانه يوضح أنه أَتَى بالموت ليؤدى أمرين :

الأمر الأول : أن مَنْ يؤمن عليه أنْ يستحضرَ الموت لأن جزاءه لا يكون

له منفذ إلا أنْ يموتَ ويَلْقى ربه ، ويعلم أن الحاجب بينه وبين جزاء الخالق هو الموت ، فساعةَ يسمع كلمة الموت فهو يستشرف للقاء الله ، لأنه ذاهب إلى الجزاء.

والأمر الثاني : أن غير المؤمن يخاف الموت ويخشاه ولا يستعدّ له ويخاف أنْ يُلاقِي ربه.

إذن : فكلمة « الموت » تعطى الرغَب والرهَب ، فصاحب الإيمان ساعةَ يسمع كلمة الموت يقول لنفسه : إن متاعبَ الدنيا لن تدوم ، أريد أنْ ألقى ربى.

ولذلك يجب أنْ يستحضرَ المؤمنون بالله تلك القضية ، وحين يستحضرون هذه القضية يهونُ عليهم كُلُّ مُصَاب فى عزيز ، فالإنسان ما دام مؤمناً فهو يعرف أن العزيز الذى راح منه إما مؤمن وإما غير مؤمن.

فإنْ كان مؤمناً فليفرح له المؤمن الذى افتقده ؛ لأن الله عَجَّل به ليرى خَيْره ، فإنْ حزنتَ لفقد قريب مؤمن فأنت تحزنُ على نفسك ، وإنْ كان الذى ذهب إلى ربه غَيْر مؤمن ، فالمؤمن يرتاح من شرِّه (١).

إذن : الموت راحة ، والذى عمل صالحاً يستشرف إليه ، وهذا رغب ، أما الكافر فهو خائف ، وهذا رَهب.

---

(١) عن أبى هريرة ﷺ عن النبى ﷺ قال : « أسرعوا بالجنازة ، فإن تك صالحة فخير تقدمونها إليه ، وإن تك سوى ذلك فشر تضعونه عن رقابكم ». أخرجه البخاري في صحيحه (١٣١٤) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٩٤٤) كتاب الجنائز.

ولذلك فمن الحُمْق أنْ يحزنَ الإنسان على ميِّت ، وعليه أنْ يلتفتَ إلى قول الحق سبحانه :

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴿٧٨﴾ ﴾ (النساء)

فقدَرُ الله لا يمكن أنْ يمنعه مانع مهما كان ، ولا يمكن أنْ يحمى الإنسانُ نفسَه مما قَدَّره الله له.

ولذلك يردُّ الحق سبحانه على الذين قالوا :

﴿ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا .. ﴿١٥٤﴾ ﴾ (آل عمران)

فكأنهم أرادوا أنْ يُعلِّلوا القتلِ أو الموت بأسباب ، ومَنِ الذى قال : إن القتلَ أو الموتَ يتعلّق بأسباب ؟

ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ... ﴿١٥٤﴾ ﴾ (آل عمران)

إن الموت قضية تطرأ لإعدام الحياة ، وهى مجهولة السبب ، ومجهولة الزمان ، ومجهولة المكان ، ومجهولة العمر.

إذن : فما دامت المسألة مجهولة ، فلماذا ربطتم بين القتل والموقعة ؟ وهل لم تروا إنساناً مات وليس فى موقعة ؟ ألم تروا إنساناً قد قُتِل وليس فى موقعة ؟ لو أن القتل لا ينشأ إلا فى مواقع قتال وحرب لكانَ لكم أنْ تقولوا هذا ، وإنما القتل والموت قضية عامة لها واقع فى حياتكم.

هذا الواقع لم يرتبط بأرض ، ولم يرتبط بزمان ، ولم يرتبط بسنٍّ ، ولم يرتبط بسبب ، وإنما الموت يأتى لأنك تموت ، انتهت المسألة.

إذن : فَهُمْ عندما ربطوا القتل والموت بالموقعة ، فهم قد خرجوا عن القضية الإيمانية ، ولذلك يأتى الردُّ من الحق سبحانه بأمر واضح للرسول ﷺ :

﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ... ﴿١٥٤﴾ ﴾ (آل عمران)

فكأنك أيُّها الميّت قد تكون أحرصَ على لقاء الموت من حِرْص الموت عليك ، بدليل أننا قُلْنا : إن الإنسان يكون مريضاً ويُلِحّ على أن تُجْرى له عملية جراحية فيعتذر الطبيب قائلاً : عندى عدد كبير من الجراحات فانتظر شهراً ، فيأتى له المريض بوساطة لكى يقبلَ الطبيبُ إجراءَ العملية الجراحية ويُلح عليه ، ويُعْلى أجْر الطبيب وقد يموت المريض.

إذن : فهو يُلحّ على الموت ويحرص عليه.

ولا بُدَّ أنْ يُقابل المؤمنُ مَوْتَ عزيز عليه بالصبر والتسليم لِقدَرِ الله ، وهؤلاء وصفهم الحق سبحانه بقوله :

﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾ (البقرة)

والمصيبة هى الأمر الذى ينال الإنسان منه المشقة والألم ، وهى مأخوذة من إصابة الهدف ، والمؤمن يستقبل المصيبة واثقاً أنها على قَدْر إيلامها يكون الثوابُ عليها.

وأىُّ أمر يصيب الإنسان ، إمَّا أنْ يكونَ له دَخْل فيه ، وعند ذلك لا يصح أن يجـزع لأنه هو الذى جـاء بالأمر المؤلم لنفسه ، وإمّـا أنْ تكـونَ مصيبة لا دَخْلَ له بهـا ، وحدثتْ له من غـيره مـثلاً ، وعـند ذلك عليه أن يبـحث عن سببها : أَعَدْلاً أم ظُلْـمًا ؟ إنْ كانت عَدْلاً فـهى قد جبـرت الذنبَ ، وإنْ كانت ظُلْمًا فـسوف يقتصُّ الله له مِمَّنْ ظلمـه ، وعلى هذا فالمؤمن فى كِلْتَا الحـالتين رابح.

إذن : فالمؤمن يسـتقبل كُلَّ مصيبـة متوقعاً أن يأتى له منهـا خير ، وعلى كل مؤمن أنْ يُقيّم نفسه تقييماً حقيـقياً : « هل لى على الله حق ؟ أنا مملوك لله وليس لى حَقٌّ عنده ، فما يُجريه علىّ فهو يُجريه فى مُلْكه هو »

ومنْ لا يعجبه ذلك فليتأبَّ على أىِّ مصيبة ، ويقول لها : لا تصيبينى.

ولن تسـتطيع دَرْء أىِّ مـصـيـبـة ، ومـا دُمْنا لا نـسـتـطيع أن نمنع وقـوع المصائب والأحـداث ، فَلْنقبلْها - كمؤمنين - لأن الحقَّ سبـحانه وتعالى يريد بنسبتنا إليه أنْ يُعزنا ويُكرمنا.

إنه يدعونا أن نقول : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾

إننا بهـذا الـقـول ننسب ملكيـتـنا إلى الله ونقـبل مـا حـدث لـنا ، فنحن مملوكون لله ، ونحن راجعون إليه.

﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧) ﴾ (البقرة)

فكُلُّنا نعيش برحمات الله ، حتـى الكافر يعيش على الأرض برحمة الله ،

ويأخذ أسباب حياته برحمة الله ، والنعم والخيرات التى يعيش عليها تأتيه بسبب رحمة الله ، والمؤمن يأخذ نِعَم الدنيا برحمة الله ، ويزيد الله له بالبركة والاطمئنان.

والاطمئنان نعمة كبرى ، فَمَنْ يعِشْ فى هذه الحياة وهو مُطمئن إلى غاية أفضل من هذه الحياة ، فهذا لَوْنٌ عظيم من الاطمئنان.

فالصلاةُ من الله عطاءُ الرحمة والبركة.

والصلاةُ من الملائكة استغفارٌ.

والصلاة من المؤمنين دُعاءٌ.

❑❑❑